الشعب يسحق الإخوان

قضى الأمر، واشتعلت الثورة، وفاضت الميادين بغضب مصر الطافح، وأثبتت الثورة المصرية أنها كالعنقاء، تقوم دائما من رماد، وتهزأ بالجلادين وجحافل التتار، وتقدم قوافل الشهداء، وتؤكد عزمها على تحقيق النصر النهائى لثورة يقودها الشهداء.

نعم، هذه ليست ثورة جبهة الإنقاذ، ولا أى حركة سياسية، هذه ثورة مصر العفية المتمردة، والتى يتسع نطاق غضبها السياسى والاجتماعى فى اطراد، وتسقط عنها الأقنعة، ولا تنخدع بالزيف، هذه هى الثورة ذاتها التى خلعت مبارك فى موجة ٢٥ يناير ٢٠١١، وخلعت مجلس طنطاوى وعنان فى موجة ١٩ نوفمبر ٢٠١١، وتخلع رئيس الثورة المضادة الإخوانية الآن، وعبر ثلاث هبات إلى الآن، تلاحقت سراعا على الطريق إلى عنوان الثلاثين من يونيو ٢٠١٣، كانت الهبة الأولى عقب الإعلان «الدستورى» المنكود، والذى أنهى شرعية انتخاب محمد مرسى، ولحقتها الهبة الثانية فى الذكرى 'لثانية للموجة الأولى، وتراكمت سريعا عظات ودروس وخبرات مهدت للهبة الثالثة الجارية الآن، والتى تبدو تتويجا عفيا لروح التمرد السارية فى المجتمع المصرى.

فقد بدت «استمارة تمرد» كأنها يد القدر، وعكست تطورًا غير مسبوق فى مسيرة الثورة المصرية المغدورة، كانت الثورة تعانى اتساع الفجوة بين وعى المبادرين وأزمة المجتمع المنهك، كان وعى المبادرين موصولا بحماس عشرات الألوف من شباب الطبقة الوسطى المستورة، أتاحت لهم التطورات الهائلة فى وسائل الاتصال مقدرة على المقارنة بين أحوالنا وأحوال غيرنا من الأمم الناهضة، ثم الهمهم ما كان من تمهيد مقاوم عبر سنوات سبقت خلع مبارك،

كانت كفاية وأخواتها مركز الإلهام الأول، ثم كان إضراب ٦ أبريل ٢٠٠٨ ملهما باجتماع طلائع الغضب السياسى والغضب الاجتماعى فيه، كان الإضراب الشهير أشبه بالبروفة النهائية للموجة الأولى فى ٢٥ يناير ٢٠١١، كان تقديرنا منذ عام ٢٠٠٥ أن الثورة فى مصر تحتاج فقط إلى مبادرة المائة ألف، وتهيأت الظروف لاجتماع الرقم السحرى فى أول أيام الموجة الأولى، وانتهت قصة مبارك من أول يوم، فقد توافرت الكتلة الحرجة الكافية لرفع الغطاء عن آبار الغضب الكامن، وهكذا تحولت المائة ألف الأولى إلى مئات الآلاف، ثم نزحت الملايين من آبار بلا قرار فى يوم الفرح المذهول بسرعة خلع مبارك، ولم تكن تلك نهاية القصة الثورية، فقط كانت البداية، فخلع مبارك لم يكن يعنى إسقاط النظام، وهذا ما قلناه فى سنوات سبقت يوم الخلع، فقد قلنا إن خلع مبارك يعنى «فك عنَّة» البلد، كان مبارك كما كنا نقول دائما أشبه بطائر رخ يرخى سدوله، ويحجب لون السماء عن المصريين، ويغلق الأفق، ويأسر الخيال، ويجعله حسيرا، فقد ظل مبارك فى الحكم لثلاثين سنة طويلة عريضة، كان العالم فيها يفيض بحيوية الخلق الجديد، بينما ضاع فيها المصريون بين مشاعر بؤس ويأس، ولم تكن الكتلة الغالبة تصدق أن شيئا ما يمكن أن يحدث، أو أن مبارك قد يزول، وكان زوال مبارك زوالا للعنة، فقد أطلق خيال الكتلة الغالبة من المصريين، لكن سجونا أخرى كانت بانتظارهم، وقيودا على الوعى ظلت جاثمة قابضة على معصم العقل، لعل أظهرها ذلك التضخم المرضى فى نفوذ جماعات اليمين الدينى، والتى نمت بسرعة فى ثلاثين سنة من البؤس واليأس والانحطاط التاريخى، كان ذلك الطفح المرضى لليمين الدينى يعوق تدفق الوعى الجديد، خاصة لدى كتلة غالبة فى المجتمع واقعة تحت خطوط الفقر والبطالة والمرض والعنوسة، وهو ما يفسر صور التصويت الرجعى فى الاستفتاء الأول والانتخابات البرلمانية الأولى، فقد بدا اكتساح اليمين الدينى كأنه حكم الأقدار، ومال مجلس طنطاوى وعنان ـ وريث مبارك الوفى ـ إلى عقد الصفقات مع اليمين الدينى، ومع جماعة الإخوان

بالذات، لكن نكسة الثورة بصعود اليمين الدينى لم تدم طويلا، بل ربما كانت هذه الصدمة بالذات سبيلا لتسريع معدلات نمو وعى ثورى حقيقى، كانت طلائع المبادرين تحارب وحدها فى الميدان، وعلى نحو ما بدا فى موجة الثورة الثانية، التى عجلت بنهاية الحكم المباشر لمجلس طنطاوى وعنان، وبدا أن الثورة فى انتظار مدد شعبى لم يتأخر طويلا، فقد تغير مزاج المجتمع المنهك تحت تأثير صدمة اليمين الدينى، وبدت الجولة الأولى فى انتخابات الرئاسة مبشرة بتغير سريع فى الوعى العام، فقد تراجع التصويت المباشر لجماعة الإخوان إلى النصف تقريبا، وإن انتهت حوادث الجولة الثانية إلى فوز حرج لمرسى الإخوانى، وبدعم اضطرارى - على طريقة أكل الميتة ولحم الخنزير - من القوى الثورية، ومع وجود اختيارات أخرى كالمقاطعة وإبطال التصويت، وبدا - لوهلة - أننا بصدد ورطة وأزمة مستحكمة، فحكم الإخوان نقمة سياسية واجتماعية واقتصادية، لكن الأمر لم يخل - بأقدار الله - من نعمة ولطف بهذا البلد العظيم المسكين، فقد كان ضروريا لكتلة المصريين الغالبة أن تجرب حكم الإخوان، وبدا فى المحنة خير كثير، ففشل الإخوان كان حتميا، فهم صورة مكررة هزلية من حكم جماعة مبارك، وبكفاءة أقل وفجور أكثر، وكانت المحنة التى عجلت بالتغير الحاسم فى موازين وعى المجتمع المنهك، والتى ردت الاعتبار من جديد لميادين الثورة، وأظهرت بشاعة جماعات اليمين الدينى، والتى لجأت إلى عنف دموى تغطية للفشل المذهل، وأدت المحنة - مع عنف وعجرفة اليمين الدينى - إلى توسيع مساحة معارضة المجتمع، وتخلقت معادلة جديدة مختلفة عن موازين الموجة الأولى، كان الوعى الثورى للقلة ظاهرا فى حوادث ٢٥ يناير ٢٠١١، وكانت الكثرة المجتمعية فى حالة غياب ذاهل بأثر مما جرى فى عقود انحطاط سبقت، وفى أقل من ثلاثين شهرا، بدت الكتلة الغالبة من المجتمع فى حالة وعى ثورى حقيقى، بينما بدت جماعات السياسة الثورية على السطح حائرة زائغة اليقين، فقد استفزت صدمة الإخوان ثورية المجتمع الكامنة، وهو ما يفسر الانتشار المذهل لحملة

«تمرد» فى زمن قياسى، وبأوسع كثيرا من خيالات المبادرين للحملة، وبدت صيحة «تمرد» صيحة مجتمع بأكثر من كونها نداء طلائع، وهو ما يعطى الموجة الثالثة للثورة قوة غير مسبوقة، إنها قوة الملايين هذه المرة، وليست قوة المائة ألف، إنها القوة التى تكتسح فى طريقها كل عفن، وتسحق عصابات لقهر، وتتخذ من «الثلاثين من يونيو» عنوانا، فالثلاثين من يونيو عنوان النهاية، حتى لو تأخرت المواعيد قليلا، والوصول إلى محطة النهاية يتوقف على شيئين لا ثالث لهما، أولهما: حجم الحشد الشعبى المليونى، والثانى: حجم العنف الذى تدفع إليه جماعات الإخوان وأخواتها فى اليمين الدينى، ولا شيء يدفع للاعتقاد يتخلف أى من الشرطين، فالثقة هائلة فى غباوة الإخوان وجماعات اليمين الدينى، والثقة أكبر فى الشعب الذى يواصل معركته السلمية المنتصرة بإذن الله، وينفض عن وعيه غبار الانخداع بحكم عصابة الإخوان، فإذا الشعب يوما أراد الحياة، فلابد لليل أن ينجلى، ولا بد للقيد أن ينكسر.

إنها النهاية لحكم مرسى وعصابته الإخوانية، وقد صارت أقرب من طرف الأصبع، فقد خانوا البلد، وخانوا الشعب، وخانوا الثورة، وتصالحوا مع القتلة ومصاصى الدماء وناهبى الثروات، وقتلوا أنبل أبناء الشعب المصرى، وها هو الشعب يملأ صوته الساحات، ويدوس أعداء ثورته بالأحذية، ويفرض إرادته التى هى من إرادة الله.

"صوت الأمة " فى ٢٨ من يونيو٢٠١٣